المجلة السعودية للدراسات التربوية
والنفسية
الإصدار السابع عشر
المجلد (٦) العدد (٣)
٢٠٢٥ (١-١٠)

الأنساق المشفرة في الأمثال الشعبية المغربية: قراءة في العلاقة بين اللغة الشعبية والهوية في مراكش

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

د. رشيدة قرمود

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٣٠ أغسطس ٢٠٢٥م

الملخص

في غمرة التقدم العلمي والأدبي في مختلف مناحي الحياة، وفي خضم التسارع نحو مواكبة المستجدات والانفتاح الذي أصبحت تفرضه العولمة والحداثة، مازال الإنسان يعض بالنواجذ على كل ما هو أصيل وتراثي، فاهتم بالتراث ووضع له النظريات والأسس، وكثرت بذلك الأبحاث والدراسات التي تنبش في ذاكرته. كما أصبحت تقاس قيمة الأديب وما يقدمه من عمل بمدى قدرته على استحضاره في دراساته.

يعد التراث ذلك الإرث المادي والمعنوي الذي تتناقله الأجيال، فيتسع بذلك ليشمل الأساطير والدين والفلكلور والأغاني والفنون والأدب الشعبي... إنه المعيار الذي تقاس به تجليات الاختلاف والتباين بين المجتمعات. وعليه لا يمكن الكشف عن العمق الحضاري للأمم إلا عبر معرفة تراثه الشعبي.

يضم التراث الشعبي بين ثناياه الأدب الشعبي الذي يوصف بكونه ذاكرة الأمم ومخزونها الذي يتجدد بتجدد الفكر الإنساني. فهو تتويج لخبرات الإنسان ومعارفه وتجاربه التي راكمها عبر زمن من الأزمان، وفي بيئة من البيئات الاجتماعية القديمة، وهو الآخر يضم بين طياته مجموعة من الفنون منها الحكاية الشعبية، الشعر الشعبي، الأمثال الشعبية وغيرها من الأنماط الشعبية الأخرى. إنه فن القول الذي تنتجه جماعة شعبية، غني بالمادة التراثية التي يمكن للباحث تقصيها وسبر أغوارها.

وتُعد الأمثال الشعبية من أهم أشكال التعبير الثقافي التي تحمل في طياتها رسائل تتلون وتتشكل حسب السياق الذي وردت فيه، فمنها ما كان واضحا جليا، ومنها ما كان خفيا ومشفرا.

وتأتي هذه الدراسة للكشف عن هذه الأنساق المضمرة في الأمثال الشعبية بمراكش، المدينة التي امتزجت فيها التأثيرات العربية والأمازيغية، إضافة إلى تأثيرات من الثقافات الغربية والإفريقية وكيف يستخدم النسق الرمزي المشفر في هذه اللغة الشعبية كأداة للحفاظ على الهوية الثقافية، وكيف يُمكن

تأويل معانيها الخفية بناءً على السياق الاجتماعي والتاريخي والثقافي لمدينة مراكش.

*** مفهوم الأمثال الشعبية**

١- ند العرب القدامى: أولى العرب القدامى في تعريفهم للمثل أهمية كبيرة، ومن بينهم الفرابي الذي عرف المثل بقوله: "ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا في السراء والضراء واستدروا به الممتع من الدر، ووصلوا به إلى المطالب القصية، وتفرجوا به عن الكرب والمكربة، وهو من أبلغ الحكمة، لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة."1

يكشف الفرابي من خلال قوله هذا، عن الميزة التي يختص بها المثل، وهي صفة التداول، كما يبرز الدور الذي تقوم به الأمثال، وهو التعبير عن المشاعر والحالة النفسية للمجتمع ومتطلباته الشخصية.، فضلا عن سمته اللغوية الفنية التي يمتاز بها.

وحري بالذكر أن الأمثال الشعبية لها من المميزات والخصائص ما يجعلها تحتل المقام الأول رونقا وجمالية لما تتميز به من جزالة في اللفظ وحسن في المعنى وبساطة في التركيب. وهي بذلك تفوق الشعر والخطابة إبداعا وصناعة. ويعبر عن ذلك ابن عبد ربه قائلا هي: "وشي الكلام، وجوهر اللفظ وحلي المعاني، والتي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم ونطق بها كل لسان. فهي أنقى من الشعر وأشرف من الخطابة، و لم يسر شيء مسيرها، ولا عم عمومها حتى قيل أيسر من مثل"2.

أما أبو عبيد، فتمثل له الأمثال: "حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حجتها في المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها ثلاث خلال: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى، وحسن التشبيه"3

نلمس من خلال تعريف أبي عبيد للمثل، كونه يتسم ببنية أسلوبية تخرج عن المباشر، كما أنه بمثابة حكمة مستخلصة من تجارب عديدة.

أما عن نظرة المرزوقي للمثل فيرى بأنه: " جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من تغير يلحقها في لفظها،

وعما يوحيه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها ..."4

إن المثل عند المرزوقي هو لفظ يتسم بالإيجاز والتداول والثبات، بغض النظر عن معرفتنا أوجهلنا بأصله.

1- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ج ١، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق على هوامشه: محمد أحمد جاد المولى، علي محمد الباجوري، محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الجيل بيروت. ص ٤٨٦

2- ابن عبد ربه أبو عمر أحمد بن محمد، العقد الفريد، مج ٣، تحقيق الأساتذة: أمين وصقر الأبياري، دار المعرف، ط٢ ١٩٧٣ القاهرة. ص ٦٣

3- السيوطي المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، شرحه وضبطه وصححه وعنون. موضوعاته وعلق على هوامشه محمد أحمد جاد المولى، علي محمد الباجوري، محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الجيل بيروت ص ٤٨٦

4- السيوطي المرجع نفسه، -٤٨٧ ٤٨٦

إذا كانت التعريفات السالفة الذكر تكشف عن الخصائص والسمات الفنية للمثل، فإن للمثل أهمية ودور فعال داخل المجتمع. ونستدل على ذلك من خلال قول لأبي هلال العسكري: " ثم إني ما رأيت حاجة الشريف إلى شيء من آداب اللسان بعد سلامته من اللحن، كحاجته إلى الشاهد والمثل والشذرة والكلمة السائرة. فإن ذلك يزيد المنطق تفخيما، ويكسبه قبولا، ويجعل له قدرا في النفوس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة والاستظهار به أوان المحاولة في ميادين المجادلة، والمصاولة في حلبات المقاولة. وإنما هو في الكلام كالتفضيل في العقد، والتنوير في الروض، و التسهيم في البرد. فينبغي أن يستكثر من أنواعه لأن الإقلال منها كإسمة إقلال، والتقصير في إلتماسه قصور، وما كان منه مثلا سائرا فمعرفته ألزم، لأن منفعته أعم والجهل به أقبح"5.

٢- عند المحدثين: لقد تعددت وتنوعت تعاريف المثل، ويمكن أن نستحضر في هذا الباب التعريف الذي أضفاه أحمد أمين على المثل حيث يقول: "هو نوع من أنواع الأدب، يمتاز بإيجاز اللفظ، وحسن المعنى، ولطف التشبيه، وجودة الكناية. ولا تكاد تخلو منها أمة من الأمم. مزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقة من طبقات الشعب وليست بذلك كالشعر والنشر الفني، فإنهما لا ينبعان إلا من الطبقة الأرستقراطية في الأدب"6.

نلاحظ من خلال ما سبق، أن التعريف الذي تقدم به أحمد أمين بخصوص المثل، هو مماثل لتعريف القدماء. حيث استقى المفهوم هو الآخر من خصائص المثل ومميزاته.

أما رشدي صالح، فينظر للمثل على أنه ذلك:" الأسلوب البلاغي القصير الذائع بالرواية الشفاهية، المبين لقاعدة الذوق أو السلوك أو الرأي الشعبي. ولا ضرورة لأن تكون عباراته تامة التركيب، بحيث يمكن أن نطوي في رحابه التشبيهات والاستعارات والكنايات التقليدية "7

إن السبب وراء استمرارية المثل وعدم اندثاره، هو تناقله من جيل إلى جيل، وانتشاره وذيوعه على ألسنة الناس على اختلاف ألوانهم وسلوكهم وأذواقهم، وتداوله يتم في مختلف المناسبات.

إن المثل و إن كان يتسم بطابع الإيجاز، فإنه يمارس حسب –مسعود جعكور– تأثيرا لا يضاهى بسبب عمق دلالته، واتساع مساعيه. إنه " قول معروف قصير العبارة، يحتوي فكرة صحيحة أو قاعدة من قواعد السلوك البشري، أطلقه شخص من عامة الناس في ظرف من الظروف ثم انتشر بين الناس يقولونه في مختلف المناسبات التي تشبه الحالة التي قيل فيها لأول مرة"8

وتمثل الأمثال لأحمد مرسي، مجموع السلوكات التي يمارسها الشخص بشكل يومي، والمعتقدات الاعتيادية المألوفة والراسخة في الأذهان إما بشكل فطري أو عن طريق التجربة والاحتكاك بالمجتمع. ويوضح ذلك قائلا: "ولعلنا إذا تأملنا

5- أبو الهلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج ١، دار الجيل بيروت ط٢، لبنان. ص ٤

6- أمين احمد، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣، القاهرة. ص ٦١.

7- إبراهيم أحمد شعلان، الشعب المصري في أمثاله العامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٧٢. ص ١٥-١٦

8- جحكور مسعود، حكم وأمثال شعبية جزائرية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٨، عين ميلة الجزائر. ص ٥

سلوكنا اليومي بشيء من إمعان النظر، لتبينا إلى أي حد يتأثر السلوك بما توارثناه من أمثال شعبية، وما رسخ في وجداننا من معتقدات، وما ألفناه من عادات انحدرت إلينا من المجتمع الذي نعيش فيه، إما بشكل مباشر عن طريق التجربة والممارسة، وإما بشكل مكتسب نتيجة الخبرات التي ينقلها إلينا غيرنا ملخصة في مثل أو حدوثة أو فزورة أو نتيجة للتعليم المنظم"9

يبدو أن التعاريف التي أدلينا بها، تكشف بجلاء عن عدم وجود تعريف محدد جامع ومانع للمثل. بحيث لاحظنا أن كل طرف ينظر إلى المثل من زاويته الخاصة، ويركز أثناء البحث عن ماهيته على جانب من جوانبه، والتي تجتمع جلها في الشكل، الوظيفة، والمضمون.

وبهذا ننتهي إلى القول بأن تعريف المثل متعدد وغير نهائي، ويفتقد إلى الدقة والتحديد، ولا ينحصر في تعريف أو رأي. فكل دارس ينظر إلى المثل من وجهة نظره الخاصة، ويركز على جانب من جوانبه. ويحضرنا في هذا الباب تصريح لأحمد مرسي يلخص فيه ما قلناه سابقا حيث يقول:" ولا نزعم أن مثل هذا التعريف... قد أتى بجديد تماما. إن الأمر ليس بالسهولة التي قد يبدو بها. وربما كانت المشكلة الرئيسية في الدراسات الإنسانية عامة والفنية منها خاصة، هي مشكلة التعريفات الدقيقة المحددة. وتبرز هذه المشكلة بشكل واضح في مجال المأثورات الشعبية عند دراستها، ذلك أن تعدد الصور والأشكال والأطر تجعل من الصعب أن يكون هناك فصل في هذا الشأن 10"

فبناء على ما تقدم نستنتج إذن أن: –

١– المثل قول سائر، فقد يأتي القائل بما يحسن أن يتمثل به في موقف ما.

٢– المثل جنس أدبي، له عناصره المميزة وسماته المحددة.

٣– المثل يعبر عن تجربة حالية بناء على تجربة سابقة

٤– الأمثال لا تقتصر على فئة من الناس دون أخرى، بل هي ما تم التوافق عليه من طرف العامة والخاصة.

٥– المثل نستعين به أحيانا حين لا ينفع أن نعبر بشكل صريح عما بدواخلنا، وذلك بطريقة فنية وبلاغية وفي ذلك جمع لشيئين: جمال أسلوب وحسن تخلص.

٦– المثل سريع الذيوع واسع الانتشار.

٧– المثل منتجه فرد مبدع ذاب في روح الجماعة التي ساهمت بدورها في الرفع من قيمته وشأنه عبر استحسانه وتداوله بين الناس.

٨– المثل يحسن انتقاء الألفاظ، ويضعها في مكانها المناسب

٩– المثل يستعمل الكلمات المتقابلة المتضادة المعاني.

١٠– المثل يجيد الحساب الدقيق لحجم الجمل طولا وإيجازا.

١١– المثل هو تعبير عن موقف صادق يختزن تجارب اجتماعية مادية.

9- أحمد أبو زيد ,نبيلة إبراهيم, محمد الجوهري عليا شكري , احمد مرسي, الحميد حواس، دراسات في الفلكلور، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٢ القاهرة. ص ٣٠٧

10- أحمد أبوزيد وآخرون دراسات في الفولكلور، مطبعة دار نشر الثقافة، ١٩٧٢. ص ٣١١

*** المثل والأنماط التعبيرية المحايثة له**

١- الحكمة والمثل: يبدو التفريق بين المثل والحكمة للوهلة الأولى صعبا لتداخلهما. ولندرك الفرق بين المدلولين، علينا إرجاع معنى الحكمة إلى مصدرها في اللغة والاصطلاح الأدبي، مثلما فعلنا في المثل.

فكلمة حكمة، اكتست معان عديدة تبعا لنواحي استخدامها، أبرزها ثلاثة وهي: -

١- العلم: إذ يقول العرب "حكم فلان حكما وحكمة إذا صار حكيما، أي عالما وصاحب حكم"11

٢- الإتقان: إذ يقول أحكم فلان عمله إحكاما، إذا أتقنه فهو محكم. ويصاغ من المادة بهذا المعنى صيغة أخرى وهي قولهم: "حكيم" فعيل "12.

٣- المنع: " فيقال: حكمت السفينة، وحكمته، وأحكمته، أي منعته وأخذت على يديه، ومن هذا المعنى قيل للحاكم: حاكم لأنه يمنع الظالم من الظلم، وعليه جاء قول جديد:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم------إني أخاف عليكم أن أغضبا

أي ردوهم وكفوهم، وامنعوهم من التعرض لي، ومن المعنى نفسه أخذت كلمة (الحكمة وهي ما أحاط بحنكي الفرس وعلى أنفه من اللجام والعذارين وإنما سميت بهذا لأنها تمنعه من الجموح والنفار وغيرهما "13.

فبالإضافة إلى المعاني السابقة، عرف ابن منظور الحكمة بقوله: "الحكيم ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها (...) الحكم والحكمة من العلم (...) والحكم: العلم والفقه "14.

"فالحكمة قديما تعني الفلسفة، وكلمة فيلسوفيا اليونانية مركبة من كلمتين هما (فيلو) يعني (محب) و(سوفيا) يعني (الحكمة). والفيلسوف هو محب الحكمة "15

٢- الحكمة في الاصطلاح الأدبي: وردت لفظة حكمة بمعان ومدلولات متنوعة نظرا لتعدد معانيها في اللغة " ونستطيع نحن أن نقول بعد اطلاعنا على كثير من آراء العلماء في تعريف الحكمة: "إن المراد بها تلك العبارة التجريدية التي تصيب المعنى الصحيح وتعبر عن تجارب الحياة أو خبرة من خبراتها، ويكون هدفها عادة الموعظة والنصيحة"16

وبالتالي فالحكمة تصدر عن من له القدرة على التدبر والتأمل والتحليل للوصول إلى نتائج مختلفة: "والحكمة بهذا المعنى لا تصدر إلا عن فئات خاصة من الناس، هم أولئك الدين أوتوا قسطا موفورا من الذكاء ونفاذ البصيرة، وفصاحة العبارة وبلاغته، كالأنبياء والحكماء والفلاسفة والشعراء وغيرهم"17

11- عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية ط ١ السنة ١٩٨٨ دار الفكر دمشق. ص ١٦

12- عبد المجيد قطامش، المرجع نفسه، ص ١٧

13- عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، ص ١٧

14- ابن منظور، لسان العرب، مج ١٢ ١٩٩٣ مادة حكم. لبنان. ص١٤٠

15- أحمد أبو النعمان، سمات الشخصية الجزائرية من منظور الانثربولوجيا النفسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط ١٩٨٨الجزائر. ص140

16- عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية. ص ١٨

17- المرجع نفسه، ص ١٨

فتعريفنا للحكمة، يحملنا إلى استنباط بعض الفروق الموجودة بينها وبين المثل وهي: –

١– المثل يصدر عن أفواه مختلف شرائح المجتمع، بينما تصدر الحكمة عن ذوي العقول النيرة والمفكرة.

٢– الأمثال وليدة بيئات شعبية: " فالناس الذين ينسب إليهم التراث الشعبي هم العامة من الناس: القرويون أو سكان الريف بصفة عامة، وأيضا الطبقات الشعبية في المدن "18

بينما لا تنبع الحكمة إلا وسط الطبقة المثقفة: العلماء المفكرون والفلاسفة.

٣–الحكمة إنتاج فردي معروف قائلها، وتظل محافظة على لفظها الذي وردت به رغم مرور السنين. أما المثل فهو إنتاج فردي وصل إلى الجماعة بعد أن صقل وهذب حتى أصبح تراثا وملكا للجماعة، فتداولته الأجيال عبر الزمن، إلا أن قائله يظل مجهولا وغير معروف.

فعلى الرغم من هذا الاختلاف الملحوظ بين كل من المثل والحكمة، إلا أنه لا يمكن أن نخفي وجود بعض عناصر التشابه بينهما وعلى رأسها: –

١– الإيجاز: إذ قد تأتي الحكمة موجزة، ويتداولها الناس فيما بينهم فتصبح بذلك كالمثل. يقول أبو هلال العسكري في هذا الصدد: "ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا."19

٢– وحدة الهدف: فالمثل والحكمة لهما هدف واحد وهو الهدف التعليمي، إذ يسعيان إلى الوعظ والإرشاد والعمل على بناء المجتمع أخلاقيا واجتماعيا.

٢– الأقوال المأثورة والمثل: إن الخصائص المحددة للمثل الشعبي هي السمات المميزة له، ومنها التشبيه، إذا أن أساس المثل التشبيه، أما الأقوال المأثورة فهي ليست من الأمثال، لأنها لا تستفي هذا الشرط. وفي هذا الباب تقول نبيلة إبراهيم: "الفرق بين المثل الشعبي وبين الأقوال أو الحكم المأثورة، فالأقوال المأثورة لا تخضع لهذه الخصائص وإنما هي أمثلة ذهنية كما قال زايلر"20

وللدكتور قطامش نفس الرأي، إذ يرى أن من سمات المثل التشبيه، وهذا ما يختلف تماما عن الأقوال المأثورة، لأنها تفتقد لهذا الشرط حيث يقول: " والرأي عندي أن المثل أساسه التشبيه، فإن استوفت العبارة السائرة هذا الشرط إلى جانب شروط المثل الأخرى التي ذكرناها آنفا، كانت مثلا، وإن فقدت شرط التشبيه لم تكن مثلا، وإنما تكون عبارة جارية مجرى المثل"21

من هنا لا ينبغي الوقوع في الخلط بين المثل والأقوال المأثورة، لأن الفرق بينهما واضح. وتلك الأقوال ما هي إلا عبارات تجري مجرى المثل، وليست من قبيل الأمثال، وإنما هي نوع من الكلام قائم بذ

*** النسق المشفر في المثل المراكشي**

تعد الأمثال جنسا أدبيا يستدعي الوقوف على مدلولاتها الثقافية وتفكيك أنساقها المشفرة واستنطاق المسكوت عنه مجتمعيا، وهي من أقدر الخطابات قدرة على

18- إبراهيم احمد شعلان، الشعب المصري في أمثاله العامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٧٢. ص ٣٢

19- عبد المجيد قطامش، الأمثال دراسة تاريخية تحليلية. ص ١٩

20- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر للنشر والطباعة، ٢٠١٧، ص ١٦٢

21- قطامش، الأمثال دراسة تاريخية تحليلية. ص ٢٢

تصوير المضمر النسقي للذات الإنسانية، أي ذلك البعد المخفي الذي يحكم بنيتها الخطابية.

والأمثال الشعبية المراكشية جزء لا يتجزأ من التراث الثقافي واللغوي في المدينة، إذ تكشف عن البنية الفكرية وتميط اللثام عن ملامح الحياة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية كما تصورها الثقافة المراكشية، المدينة الحمراء التي اختزلت قرونا من التاريخ وتفردت بتراث غني بوأها الصدارة وجعلها من أبرز المدن المعروفة بتنوع وتكامل روافدها الثقافية.

تنطلق هذه الدراسة من رغبة في استجلاء الأنساق المشفرة في الأمثال الشعبية المتداولة بمدينة مراكش، وكيف توظف كآلية لتثبيت الهوية الثقافية في ظل الحداثة والعولمة، وذلك من خلال تأويل الأبعاد الدلالية الكامنة في هذا الخطاب الشعبي ضمن سياقها الاجتماعي والثقافي الخاص بمدينة مراكش. وسنركز في هذه الورقة البحثية على نسق واحد يمثل في نظرنا اللبنة الأساس التي يقوم عليها المجتمع ويتعلق الأمر بالنسق الجندري وتمثلات المرأة في المتن المثلي.

٣- النسق الجندري وتمثلات المرأة في المتن المثلي: تمثل المرأة جزءا أساسيا ومؤثرا في نسيج المجتمع إن لم نقل الأهم بين كل مكوناته، فهي تلك الأرض الخصبة التي أسالت حبر الكثير من الباحثين، وتمثل نصف المجتمع ولبنته الأساس. تربي المجتمع في أحضانها. إنها الأم والأخت والزوجة والصديقة... لذلك حظيت بنصيب الأسد من الأمثال الشعبية. من هنا جاء " إلحاح الدعوة إلى درس ما تتوارته المرأة ذاتها في مجتمعها الشعبي، تأسيسا على ما تقوم به من دور بارز في بث ألوان المأثور الشعبي، تحفل بحشد من القيم والتصورات التي تثبت صور الوعي المحافظة على الأوضاع التقليدية السائدة في مجتمعنا، وإدراكها لدورها التأسيسي في عملية التنشئة للأجيال الجديدة بما تحافظ عليه من قيم ومثل تقليدية تعيد المرأة إنتاجها وتعززها لديهم"[22]

إننا ونحن ننبش دفاتر الأمثال الشعبية المراكشية التي تناولت موضوع المرأة، اكتشفنا أن هذه الأمثال غالبا ما تكون فيها المرأة إما مقترنة بالرجل أو بنسبها أو بالأبناء. بوصفها الحافظة للرجل وأبنائه الذين تعيش تحت مظلتهم، والتي يتوقف عليها وجود هذه الأجيال، بل وجود المجتمع بعينه.

فالمبدع راهن على شكل المرأة المرغوب فيه " إيلا تزوجتي تزوج لقصيرة إلا فصلتي ليها ما تحير" بوصف المرأة مفعولا بها وليست فاعلة في معادلة الزواج والاختيار، ويعبر النسق المضمر هنا عن رؤية ذكورية تجعل المرأة موضوع مقارنة يحدده منطق الذكر- الزوج. ولم يغفل لونها كذلك:" إلا بغاتك الحمرا بغيها وخسر مال باك وجدك عليها، بحالها بحال لعسل إلا طاحت على الجرحة تداويها"، فالجمال هنا يفهم كقيمة اجتماعية مطلوبة يقاس بها نجاح الرجل بحيث تصبح المرأة هنا كصفقة أو مشروع للاستثمار لا بوصفها ذاتا مستقلة، كما يكرس المنظور الذكوري الحاكم، ويعبر في نفس الآن عن تشييء المرأة بوصفها سلعة وليست شريكة حياة فضلا عن تضمنه نوعا من المباركة الاجتماعية للإنفاق عليها وكأن المجتمع يجيز للرجل أن يخسر ماله على امرأة تليق به. "

22- عبد الحميد حواس، أوراق في الثقافة الشعبية الطبعة الأولى مركز البحوث العربية والافريقية ص ٢٩

أما المثل الآتي "إلا بغاتك البيضة لا تبغيها لا تخسر مال بوك وجدك عليها بحال البياض إلا طاح في العين كيعميها. فإنه يحمل استهجانا مبطنا للمرأة، ودعوة إلى النفعية في العلاقات العاطفية ويعكس رؤية ذكورية تعطي الحق للرجل في أن يختار من تستحق أن ينفق عليها دون مبالاة بعاطفة المرأة وميولاتها. وقد تغنى أيضا بجمالها:" الزين حبو مولانا "الذي يشير إلى صورة المثالية والقداسة في ربط الجمال والحب بسلطة روحانية حيث يصبح الجمال ذا قيمة عندما يرتبط بشخصية ذات قداسة وروحانية. فالنسق المشفر هنا يتمثل في كون الحب المتحدث عنه هنا لا يرتبط بالحب الدنيوي بل هو حب عميق وطاهر يكشف عن الصراع القائم بين الجمال المادي والروحاني فلالة زينة وزادها نور الحمام"، ولالة مليحة وزادتها الترويحة" عند المراكشيين تحمل دلالة على نوع من التقدير للمرأة أما زينة فهي تشير إلى الجمال والزينة ويكرس هذا المثل لصورة المرأة التي تحظى بالتقدير والمكانة العالية في المجتمع والتي تعيش حياة طاهرة نقية وتؤشر على ذلك عبارة نور الحمام، فكلمة حمام هنا ترمز للطهر والصفاء والنقاء الجسدي والروحي معا , أما لفظة ترويحة الواردة في المثل الشعبي فتعني الاستجمام و الفسحة، وهي تشير إلى نوع من الهدوء والسلام النفسي. إن النسق المضمر في هذا المثل يتجلى في ربط الجمال بالاستجمام والترفيه عن النفس مما يعكس صورة مكتملة الأركان تربط المظهر الخارجي بالحالة النفسية والروحية للمرأة.

فهذه الأمثال، بالرغم مما فيها من حمولة دلالية إلا أنها عبارة عن سلاح فتاك يميط اللثام عن الصورة الملغومة التي يحملها المجتمع عن المرأة والتي تضعها في مصاف السلع المعروضة يتم انتقاؤها بناء على مواصفات وشروط معينة.

إن "شكل جسد المرأة بخصوصيته البيولوجية وإمكاناته الطبيعية عبر تاريخ الحضارات الإنسانية والميثودلوجيا القديمة والتصورات الدينية حقلا لتناقضات بارزة. فهو مجال للقوة الميتافيزيقية للسلطة المرتبطة بسر الأمومة والخصوبة وحمل الحياة الجديدة وهو أيضا مجال للشر، مصدر للسحر والضرر حامل للحياة والموت في آن واحد فكرتان تبرزان حول جسد المرأة: الجسد/العورة مجال الشهوة ومصدر الفتنة، باب الشيطان ورمز الدنس والقذارة من جهة، ومن جهة ثانية الجسد المقدس رمز الطهارة والخير والزهد علاقة العطاء والخصوبة فكرتان تمتدان قديما في حضارتنا وثقافتنا وعقليتنا وتستمران بمرجعية واقعية تمارس في سلوكاتنا وعلاقة الآخر بجسدنا"23

والملاحظ كذلك، هو أن هناك أمثلة تكشف عن فكر رجعي ومستفز. فليتمعن القارئ مليا في هذا المثل" المرا عمارة وخا تكون حمارة " فهذا المثل يعكس تناقضا ثقافيا يمتزج فيه التقليل من قدرتها على تحمل الصعاب وبناء أسرة متماسكة، والتقليل من قيمتها ومن شأنها. فالنسق المضمر هنا يظهر التضارب بين الاعتراف بأهمية المرأة ودورها في التأسيس، وبين التقلبل من شأنها في مجالات أخرى بسبب الصورة النمطية التي تم التكريس لها في المجتمع باعتبار المرأة

23- خديجة قوسال المرأة في المثل المغربي ص ٦١-٧٠

www .aljabriadeb.net

ذات قدرات محدودة محكوم عليها بالتبعية والتقوقع في مهام بعينها. فهو يوهم قارئه بأنه قيل للرفع من قيمة المرأة وإبراز مكانتها، لكنه في حقيقة الأمر يميط اللثام عن المكانة المنحطة والنظرة الدونية التي يوليها المجتمع للمرأة. وقس على ذلك مجموعة كبيرة من الأمثلة التي تؤكد بقوة ما قلناه وتعززه. ويمكن أن نستعرض في هذا الموضوع بعض العينات من نفس الشاكلة، كقول المبدع المرا كتربط من لسانها والبغلة من لجامها". " فاللسان استعمل كآلة مسخرة من طرف المرأة لنفث سموم الغيبة والنميمة والكلام المفرغ من العقل والتعقل. وأمثلة المرأة الثرثارة تكررت على امتداد جغرافيا العالم البشري، حيث رصد ميشال مراد كتابه روائع الأمثال العالمية إعادة صياغته في أكثر من عشرين لغة"24. فمقارنة المرأة بالبغلة يشير إلى أن المرأة تحتاج إلى توجيه وتحكم في تعاملاتها اليومية وعلاقاتها الاجتماعية فأي قيمة هاته التي تكرسها هذ الأمثال الشعبية؟ إنه ومن دون ريب أننا نستثمر سموما فكرية تعصبية مرتبطة بعقلية الماضي التليد المدمر والناسف لكل معاني التقدير والاحترام والمحملة بمعاني العنف والتحقير.

إن الأفكار الرجعية التي تكرسها الصورة النمطية تجاه المرأة، مازالت وللأسف الشديد جارية على ألسن العامة من الناس، رغم ما عرفه المجتمع من تقدم وتحضر راكمته النساء على مستوى الحقوق والحريات وكذا من ناحية إنتاجاتها العلمية في مختلف المجالات بما فيها الموروث الشعبي. حيث اتسع حجم اسهاماتها في الثقافة الشعبية ليمتد "إلى مكونات المعارف والمعتقدات والتصورات الشعبية، من ناحية، وإلى قواعد ممارسة العادات والتقاليد والأعراف التي تتبعها الجماعة الشعبية التي تنتمي إليها من ناحية أخرى"25

٣- العلاقة بين اللغة والهوية في الأمثال المراكشية: تحمل اللغة المستعملة في الأمثال الشعبية المراكشية سمات خاصة تعكس حياة المراكشيين بكل تفاصيلها، ينقلون عبرها تجاربهم وعاداتهم، بدءا من اللهجة المراكشية إلى المفردات التي تمتح من البيئة المحلية. حيث تساهم في تحديد الانتماء الجغرافي للمتحدثين بها، وتقدم فكرة مسبقة عن الهوية الثقافية لمدينة مراكش بما في ذلك العلاقات الاجتماعية والطبائع الإنسانية. كما تعكس الأمثال المراكشية تأثيرات جغرافية متعددة تتبلور من خلال ذلك التواشج بين سكان المدينة والقادمين من مختلف بقاع العالم مما يبرز تعدد الهوية الثقافية لسكان المدينة الحمراء. ويبقى المثل المراكشي السبيل إلى حفظ هذه الهويات المتنوعة التي تتفاعل مع بعضها البعض لتكون هوية مراكشية متعددة من خلال تداولها بين الأجيال.

*** الخاتمة**

وختاما يمكن القول إن المثل الشعبي عبارة عن نص موجز وغير ثابت، تتغير دلالاته بتغير المواقف التي قيلت فيه، ويستجيب دائما للتغيرات الثقافية التي تشهدها المجتمعات في مختلف مجالات الحياة جراء زوال الحدود الثقافية بين الأمم في زمن العولمة. وما الأمثال إلا جزء من هذا المجتمع وانعكاس

24- خديجة قوسال المرأة في المثل المغربي ص ١

25- عبد الحميد حواس، أوراق في الثقافة الشعبية منتدى سوق الأزبكية مكتبة الدراسات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة شركة الأمل للطباعة والنشرص ٢٨-٢٩

حقيقي له، ولها من المميزات والخصائص ما يجعلها تختلف عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى بنية ودلالة ووظيفة.

وتشكل الأمثال المراكشية جسرا مهما بين اللغة والهوية حيث تساهم في تثبيت القيم والعادات والتقاليد ونقل القيم المجتمعية والتكافل بين الأفراد مما يجعلها أداة قوية للحفاظ على الهوية المحلية وتعزيز الشعور بالانتماء تربط الأجيال ببعضها البعض.

*** المراجع**

ابن منظور، لسان العرب، مج ١٢ ١٩٩٣ مادة حكم. لبنان

أحمد أبو النعمان، سمات الشخصية الجزائرية من منظور الانثربولوجيا النفسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط ١٩٨٨ الجزائر

براهيم احمد شعلان، الشعب المصري في أمثاله العامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٧٢.

جحكور مسعود، حكم وأمثال شعبية جزائرية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٨، عين ميلة الجزائر

خديجة قوسال المرأة في المثل المغربي

عبد الحميد حواس، أوراق في الثقافة الشعبية منتدى سوق الأزبكية مكتبة الدراسات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة شركة الأمل للطباعة والنشرص

عبد المجيد قطامش، الأمثال دراسة تاريخية تحليلية

مين احمد، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣، القاهرة

نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر للنشر والطباعة، ٢٠١٧